المحاكمة] كما يشبه الأبطالَ في بعض القصص والحكايات الشعبية العربية الذين يهيمون على وجوههم بحثاً عن الحظ والكنوز. وتُعبِّر الرواية عن الاغتراب الوجودي للإنسان الحديث على مسرح الحياة الحَضَرية [المدينيّة] بدوائر ملتوية لغريبٍ بلا اسم، يخرج من فضاء لانهائي غير خاضع للزمن. يدخل هذا الغريبُ المدينةَ الأسطورية ليَعْبُرَ أرضاً يباباً لا حدود لها ملأى بالمتاهات حتى تموت المدينة في الطوفان. ولصورة المتاهة التي تعكس تمزق المدينة والمجتمع وتشظّيهما جرّاء الحرب أهميةٌ مركزيةٌ في هذه الرواية.

من الصفحات الأولى لنص الياس خوري المفعم بالشاعرية واللغة المجازية [الأليغوريّة] نقف على حقيقة أنّ بحث الغريب عن «المدينة» عبثٌ لا طائل تحته. فمثل هذا المكان الذي يمكّن الإنسان من الاهتداء إلى بيت مستقر وأمن، ومن اكتساب هويّة، ليس موجوداً (أو لم يعد موجوداً). وهكذا يعلن الكاتبُ موت أسطورة «المدينة»، وهو بالتالي يعلن موت المفهوم الحَضَري [المديني] الذي أسقط على المدينة التجلي المكانيَّ لرغبات الإنسان وهويته وسعادته: «لكنّ المدينة التي أتى إليها من أمكنة بعيدة غابت. قيل إنّها غادرتْ في العيون، وقيل إنّها ذهبْت إلى البحر، وقيل إنّها اشتعلت في الغابة، وقيل... لكنها غابت ولم يعد البحث عنها ممكناً، لم تعد المدينة ممكنة، ولم يعد الرجل» (ص ٧). في رواية **أبواب المدينة** قام الياس خوري بإبداع مجاز مديني شامل يتجاوز الواقع الملموس لبيروت التي نحرتها الحربُ[١]. ولكنّ رؤيته الأسطورية للمدينة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوضع اللبناني، بل لا يمكن أن تسند صيغتها الحالية إلا بالاستناد إلى تجربة الحرب الخاصة هذه. ولعلّ من المفارقات الساخرة أن يلتفّ الكاتب حول قصة التكوين الإنجيلية: فبدلاً من أن تُبنى مدينتُه وتُخلق فإنها تحكم بالسقوط، لأنّ الناس يدمِّرون مدينتهم ويدمِّرون أنفسهم في عملية الحرب «المضادة للخلق». ويبقى أهالي المدينة الأسطورية أسرى طقوس العبادة: فثمة سبع عذراوات دائباتٍ على الندب والنواح عند ضريح الملك الراحل منذ ألف عام تنفيذاً لوصية ملك المدينة الأخيرة؛ ومن المحتمل أن يرمز ضريح الملك إلى التقاليد القمعية البالية الموروثة، أو الى الإيمان الراسخ بالنظام الطائفي[٢].

ينطلق بحثُ الغريب عن المدينة (الوطن) من الصورة المثالية للمدينة في الثقافة العربية الكلاسيكية، وهي الصورة التي وصفناها في القسم الأول من هذه المقالة. فمدينة خوري الخيالية تشبه المدينة القديمة: إذ هي محاطة بأسوار عالية وعصيّة، كما أنّ لها سبع بوابات، وقصراً، وملكاً، وبواباتٍ داخليةً مصنوعةً من الذهب والفضة. ولكنْ سرعان ما يتضح أن أوجه الشبه هذه ليست إلا وهماً.

تتشكل القاعدة البنيوية لأمثولة الياس خوري من الأجواء الأسطورية في الحكايات الشعبية الخيالية ومن أُطرها[٣]. وتوظَّف هذه العناصرُ في الوقت نفسه من أجل تفكيك صورة المدينة الأسطورية. فالغريب يقع أسيرَ تصوراتٍ عذبة عن المدينة: يأتيها حالماً بدخولها مثلَ أمير برفقة فتاة جميلة (ص ١٤)، ثم يُقاد إلى حمّام رخامي ويُلبَسُ أفخرَ الملابس، ويلتقي، آخرَ المطاف، بامرأة جميلة (ص ١٢). غير أنّ أيّاً من هذه الأحلام لم يتحقق، ولا يرحِّب به أحد، كما لا توجد أية إشارات تدلّ على وجود حياة اعتيادية، بل إنّه ـ على النقيض من ذلك ـ لا يرى سوى أسوارٍ أسمنتية عالية مخيفة. والأسوأ من هذا كله أنّه لا يهتدي الى أبواب المدينة إلا بعد أن يطوف حول الأسوار عدة مراتٍ.

وأمام كلّ باب من الأبواب تقف حسناء شابةٌ مستعدةٌ لفتحه للغريب. وحين ترفض الفتياتُ مرافقته إلى قلب المدينة يَفْسد حلمُه ببلوغ «مدينة الأحلام»، وتزيد مخاوفه. فعليه أن يقتحم عالمَ المدينةِ الغريبَ وحده؛ وتلك مهمةٌ يرفض الإقدام عليها ستٌّ مرات. ولكنّ كلاً من الحسناوات تَعِده بأنه واجدٌ بوابةً ذهبيةً/فضية داخل المدينة؛ وما عليه إلاّ أن يعبرها حتى يجدهنّ في انتظاره لممارسة الحب معه (ص ١٣ ـ ١٥).

منذ هذه النقطة فصاعداً يتداعى الحلمُ بنظام مثالي، وبالأمن والسلام والحياة السعيدة داخل المدينة الأسطورية. غير أنّ الرجل لا يلبث أن يتغلب على مخاوفه عند البوابة الأخيرة (السابعة) فيُقْدِم على الدخول الى المدينة بمساعدة إحدى النساء الأسطوريات. وعلى الفور تنغلق البوابةُ خلفه ويصبح الغريب سجيناً في المدينة الأسطورية.

---

١ ـ في مقابلة عام ١٩٨١ قدّم الياس خوري التفسير التالي للمدينة في روايته: «أما **أبواب المدينة** فهي من بيروت وليست عن بيروت، إنها الرؤيا التي تقدمها مدينة عظيمة ومدمّرة ومسحوقة وتريد أن تعيش، هي بيروت، وهي تقدم رؤيتها عن كل المدن. فأسوارها هي الأسوار التي تحيط بكل المدن العربية، وغربة الانسان فيها هي غربة الإنسان العربي الذي تسحقه أحذية كل السلاطين. فتجربتنا يجب أن تكون أداة نقرأ بواسطتها الواقع العربي قراءة نقدية عميقة»، في: «نعيش الصعوبة الكبرى للبدايات الحقيقية»، **الموقف الأدبي** العدد ٤٦ ـ ١٣/٧/١٩٨١، ص ٤٧.

٢ ـ أحمد جاسم حميدي و م. ج. حميدي: **الرواية فوق الواقع، بحث في ظواهر تأصيل الحديث الروائي العربي**، دمشق/بيروت: دار ابن هانئ، ١٩٨٥، ص ٤٦، ٥٢.

٣ ـ يبيّن المظهرُ الخارجي لمدينة الياس خوري الأسطورية، إضافةً إلى بعض التفاصيل في حبكة الرواية، تأثُّر صورته المدينية بقصص **الف ليلة وليلة** ولاسيّما بقصة «مدينة النحاس».